دلالات سورة الفاتحة التربوية في ضوء التفسير القيّم

د. حمـــدان عبـد الله الصوفـــــي
كلية التربية-الجامعـة الإسلاميـة بغـزة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، أما بعد:

فإن الخالق عز وجل لم يخلق الإنسان عبثاً، ولن يتركه سُدى، بل خلقه لغاية العبادة، وبيّن له سبيل الهداية وأمره بالتزامها، كما بين له سبل الغواية وحذره منها، ورتب على ذلك المسؤولية والجزاء الأخروي. ومنذ أنزل الله تعالى آدم إلى الأرض هداه إلى ما يصلحه في الدنيا والآخرة وما يُعينه على القيام بتكاليف الخلافة. ثم استمر منهج الهداية في البشر على أيدي الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل للأخذ بأيدي الناس صوب ما يحقق لهم سعادتهم في الدنيا والآخرة. وقد ختم الله عز وجل ركب الأنبياء والرسل بمبعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بمنهج هداية الإنسان إلى يوم القيامة، وتمثل هذا المنهج في القرآن الكريم الذي وصفه الله عز وجل بقوله: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: ٩) وهذا يعني أن القرآن الكريم يهدي للتي هي "أعدل وأعلى، من العقائد، والأعمال، والأخلاق. فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم، وأهداهم في جميع الأمور"[١].

إن القرآن الكريم -في مجمله- منهج هداية للإنسان عقيدةً وفكراً وعبادةً وأخلاقاً، وقد أنزله خالق الإنسان الذي يعلم ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك:١٤) ومع ذلك فقد اختص الله سبحانه وتعلى بعض السور والآيات بمعانٍ وقوة تأثير لا توجد في غيرها، كسورة الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين وخواتيم سورة البقرة، وآية الكرسي، وغير ذلك من السور والآيات التي أشار إليها الشارع.

وتأتي سورة الفاتحة على رأس السور التي أشار القرآن الكريم إلى أهميتها وعظيم نفعها في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) (الحجر:٨٧) كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما فيها من المعاني العظيمة والحكم الجليلة عندما وصفها بأنها "أعظم سورة في كتاب الله"[٢].

ولا شك في أن هذه الأوصاف الممنوحة لسورة الفاتحة تبين أن فيها من الدلالات التربوية ما ليس في غيرها. وقد بذل المفسرون قديماً وحديثاً جهوداً كبيرة من أجل تجلية ما تتضمنه سورة الفاتحة من حكم عظيمة ودلالات جليلة، وكان الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى من هؤلاء العلماء الذين بذلوا جهداً موفقاً في بيان ما تشتمل عليه سورة الفاتحة من حكم ومعان، وتميز أسلوب الإمام ابن القيم في تناوله لمعاني هذه السورة بالتحليل المتعمق في سبر

المعاني والوصول إلى جذور الأفكار والبناء عليها والاستنباط منها بطريقته ميّزته عن غيره من العلماء، ولذلك ركز الباحث على آراء الإمام ابن القيم الواردة في "التفسير القيم" من أجل بيان الدلالات التربوية المتضمنة في سورة الفاتحة، ولكن الباحث لم يُغفل آراء العلماء الآخرين، بل استفاد منها في كثير من مواضيع الدراسة تتميماً للفائدة، واستكمالاً لما تضمنته هذه السورة العظيمة من أسرار.

إن القرآن الكريم منهج الهداية للإنسان بما تضمنه من عقائد وقيم وأخلاق تساهم في بناء الإنسان الصالح في ذاته المصلح لغيره، القائم بمهمة عمارة الأرض، العابد لربه، ولما كانت سورة الفاتحة أعظم سورة في القرآن فقد تضمنت النصيب الأوفر من تلك المعاني المذكورة، وقد لاحظ الباحث بأن سورة الفاتحة قد اشتملت على دلالات تربوية عظيمة لا يستغني عنها الإنسان المسلم لا سيما في عصرنا الذي كثرت فيه الفتن، وزادت فيه الصوارف التي أبعدته -نوعاً ما- عن العناية بالقرآن الكريم فهماً وتدبراً واستهداءً.

مشكلة الدراسة:

يمكن أن تتمثل مشكلة الدراسة في السؤال الرئيس الآتي:

ما دلالات سورة الفاتحة التربوية في ضوء التفسير القيم؟

ويتفرع من ذلك السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

١. ما الدلالات التربوية المتعلقة باشتمال سورة الفاتحة على المقاصد العامة للدين؟
٢. ما الدلالات التربوية المتعلقة بتضمن سورة الفاتحة لغاية الخلق "العبادة"؟
٣. ما الدلالات التربوية المتعلقة بالجانب البياني في سورة الفاتحة؟
٤. ما الدلالات التربوية لاشتمال سورة الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان؟

أهداف الدراسة:

ترمي هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١. بيان مقاصد الدين العامة المتضمنة في سورة الفاتحة وما يتعلق بها من دلالات تربوية.
٢. إيضاح الدلالات التربوية لمضمون العبادة في سورة الفاتحة.
٣. تجلية الدلالات التربوية المتعلقة بالجانب البياني في سورة الفاتحة.
٤. الكشف عن اشتمال سورة الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان.
٥. إلقاء الضوء على جانب من آراء الإمام ابن القيم التربوية الواردة في "التفسير القيم".

أهمية الدراسة:

تتجلى أهمية الدراسة في النقاط الآتية:

- ضرورة ربط المفاهيم التربوية الإسلامية بمصادرها الأصيلة، وهذا ما تحاول الدراسة أن تقوم به من خلال بيان الدلالات التربوية المستنبطة من سورة الفاتحة.
- يمكن أن تعد هذه الدراسة من الدراسات التربوية التأصيلية التي تسعى إلى تقويم الأفكار التربوية بناءً على معايير صحيحة، مع الاستفادة -ما أمكن- من الفكر التربوي المعاصر فيما يوافق فيه المنطلقات الإسلامية.
- ضرورة التواصل الفكري بين المسلمين المعاصرين وتراثهم التربوي العريق المتمثل في اجتهادات المبدعين من علماء الأمة السابقين الذين من أبرزهم الإمام ابن القيم رحمه الله.
- يمكن أن يستفيد من هذه الدراسة المهتمون بتأصيل المفاهيم التربوية، والقائمون على شئون التربية والتعليم، والمؤسسات التربوية العامة والإسلامية منها على وجه الخصوص.

منهج الدراسة:

تستخدم هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم على جمع جوانب ظاهرةٍ ما وتبويبها، ثم تحليلها للخروج باستنتاجات مرتبطة بالظاهرة محل الدراسة.

وسوف يقوم الباحث في ضوء هذا المنهج بجمع آراء الإمام ابن القيم التربوية المتعلقة بسورة الفاتحة، وكذلك آراء بعض المفسرين والعلماء قديماً وحديثاً، ثم الخلوص بأهم الدلالات التربوية المتضمنة في سورة الفاتحة.

مصطلحات الدراسة:

الدلالات التربوية:

جاء في "المعجم الوسيط"[٣] الدلالة: الإرشاد، وما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه.

ويرى الأصفهاني[٤] أن الدلالة مصدر كالكتابة والأمارة، والدالُ من حصل منه ذلك، والدليل في المبالغة... ثم يسمى الدال والدليل دلالة كتسمية الشيء بمصدره.

ويمكن القول بأن المقصود بالدلالات التربوية في هذه الدراسة مجموع المضامين التربوية التي تدل عليها سورة الفاتحة بالعبارة أو الإشارة أو الاقتضاء في ضوء تفسير ابن القيم لهذه السورة العظيمة.

التفسير القيم:

هو مجموعة قيمة من تفسير الإمام ابن القيم رحمه الله، جمعها المحقق الشيخ محمد إدريس الندوي من المطبوع من مؤلفات الإمام ابن القيم، وراجعها ونقحها وزاد عليها الشيخ محمد حامد الفقي. وصدرت هذه المجموعة في مجلد عنوانه: "التفسير القيم للإمام ابن القيم". وقد شغل تفسير سورة الفاتحة ما يزيد على المائة صفحة من هذا المجلد.

خطوات الدراسة:

مرت هذه الدراسة بالخطوات الآتية:

- تحديد الإطار العام للدراسة والرجوع إلى الدراسات السابقة.
- قراءة تفسير الإمام ابن القيم رحمه الله لسورة الفاتحة قراءة تحليلية واستخلاص الدلالات التربوية الواردة فيه.
- الرجوع إلى أقوال بعض المفسرين والعلماء قديماً وحديثاً في تفسير سورة الفاتحة من أجل تدعيم دلالات سورة الفاتحة التربوية.
- تصنيف الدلالات التربوية لسورة الفاتحة بحسب الترتيب الوارد في الدراسة.
- تحديد أهم نتائج الدراسة، والخروج بعدة توصيات في ضوء هذه النتائج.

أولاً: تمهيد:

ستقدم الدراسة تعريفاً بالإمام ابن القيم رحمه الله صاحب كتاب "التفسير القيّم"، ثم تعريفاً بسورة الفاتحة موضع الدراسة، قبل مناقشة الدلالات التربوية التي تشملها سورة الفاتحة.

١. تعريف بابن القيم (رحمه الله) (٥):

هو شمس الدين، أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز، الزرعي الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قيم الجوزية، لأن أباه كان قيماً على مدرسة "الجوزية بدمشق".

ولد بدمشق سنة إحدى وتسعين وستمائة للهجرة، ونشأ في أسرة فاضلة، وفي بيت علم ودين وصلاح، فعني بتحصيل العلوم المختلفة، حتى برع في كثير منها، وقد أحاط بالثقافات المتعددة، فنبغ في علوم الحديث، وحفظ المتون، وجرح الرجال وتعديلهم، وقد أعانه على ذلك حافظة واعية، وذاكرة قوية، وذكاء مفرط. وكان لابن القيم معرفة بالتوراة والإنجيل والمزامير، وبالعبرية والسريانية والفارسية والتواريخ القديمة.

إنه من الشخصيات التي تمتاز بنفاذ الذهن، وبُعد الغور، والتحرر من ربقة التقليد الأعمى؛ فقد تصدي للفلاسفة ورد عليهم، وحارب شطحات الصوفية، وأنكر البدع في العقائد والأحكام، وعاش حياته ملتزماً بأصول الإسلام مدافعاً عنها داعياً إلى التجديد.

وقد تأثر كثيراً بشيخه الإمام ابن تيمية رحمه الله، وتلقى عنه العلم النافع، واقتدى به في حرية البحث والدراسة.

وقد ذاع صيته، ورُزق حظاً كبيراً في التصنيف والتأليف. ومدحه العلماء بما هو أهل له، حيث قال فيه ابن رجب: "ما رأيت أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان، وليس هو بالمعصوم، ولكني لم أرَ في معناه مثله". وقال فيه نحو ذلك ابن كثير، وابن حجر، والسيوطي.

توفي الإمام ابن القيم في وقت أذان العشاء في ليلة الخميس ثالث عشر رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة، ودُفن بمقابر الباب الصغير عند والديه رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة.

٢. تعريف بسورة الفاتحة:

رجح الإمام البغوي رحمه الله أن سورة الفاتحة مكية، لأن الله تعالى قال في سورة الحجر **(وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)** (الحجر:٨٧) وسورة الحجر مكية "لم يكن يمن عليهم بها قبل نزولها"[٦].

ورجح الإمام القرطبي رحمه الله أن سورة الفاتحة مكية، وذلك لأن سورة الحجر "مكية بإجماع، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الحمد لله رب العالمين"[٧].

إن سورة الفاتحة لها فضائل كثيرة عبر عنها الإمام القرطبي –على سبيل الإجمال– بقوله: "وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل: إن جميع القرآن فيها، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن. ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القربة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها. وبهذا المعنى صارت أم القرآن"[٨].

ويُضيف الإمام القرطبي –في موضع آخر– أن "الفاتحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير"[٩].

وقد ورد في بيان فضائل سورة الفاتحة أحاديث عديدة، منها ما أخرجه الإمام البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: **(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ)** (الأنفال:٢٤) ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن الكريم قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي

أعظم سورة في القرآن؟ قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته"[١٠].

ونقل الإمام ابن حجر العسقلاني عن ابن التين أن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: هي أعظم سورة في القرآن، أي أن ثوابها أعظم من غيرها. ثم أضاف الإمام ابن حجر أن قوله صلى الله عليه وسلم: "هي السبع المثاني والقرآن الكريم الذي أوتيته" فيه دلالة على أن الفاتحة هي القرآن العظيم[١١].

ومن الأحاديث الواردة في فضائل سورة الفاتحة ما جاء في صحيح مسلم بشرح النووي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً[*] من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، ولم يُفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أُعطيته"[١٢].

وسورة الفاتحة لها العديد من الأسماء، ذكر الطاهر بن عاشور أن الثابت منها في السنة الصحيحة ثلاثة أسماء هي: فاتحة الكتاب، والسبع المثاني، وأم القرآن أو أم الكتاب[١٣].

بينما أورد الإمام القرطبي اثنى عشر اسماً لسورة الفاتحة هي: الصلاة، والحمد، وفاتحة الكتاب، وأم الكتاب، وأم القرآن، والمثاني، والقرآن العظيم، والشفاء، والرقية، والأساس، والوافية، والكافية"[١٤].

وقد ذكر الإمام البيضاوي طرفاً من دلالات أسماء سورة الفاتحة من خلال قوله: "سورة الفاتحة، وتُسمى أم القرآن، لأنها مفتتحه ومبدؤه، فكأنها أصله ومنشؤه، ولذلك تسمى أساساً، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء على الله سبحانه وتعالى، والتعبد بأمره ونهيه، وبيان وعده ووعيده، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية والأحكام العملية التي هي سلوك الطريق المستقيم، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء، وسورة الكنز والوافية والكافية لذلك، وسورة الحمد والشكر والدعاء وتعليم المسألة لاشتمالها عليها، والصلاة لوجوب قراءتها أو استحبابها فيها. والشافية والشفاء لقوله عليه الصلاة والسلام "هي شفاء من كل داء"، والسبع المثاني لأنها سبع آيات بالاتفاق... وتُثنى في الصلاة، أو الإنزال إن صح أنها نزلت بمكة حين فُرضت الصلاة وبالمدينة حين حولت القبلة"[١٥].

وابتداء المصحف بسورة الفاتحة يجعلها كالديباجة للكتاب، أو المقدمة للخطبة، وقد اشتملت سورة الفاتحة على القواعد الأساسية التي ينبغي أن تكون في المقدمة أو الديباجة.

(*) أي صوتاً كصوت الباب إذا فتح (النووي: ٦/٩١).

يقول الطاهر بن عاشور في هذا المعنى: "فسورة الفاتحة بما تقرر منزلة من القرآن منزلة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة... وقد رسم أسلوب الفاتحة للمنشئين ثلاث قواعد للمقدمة: القاعدة الأولى: إيجاز المقدمة لئلا تمل نفوس السامعين بطول انتظار المقصود وهو ظاهر في الفاتحة... ومن هذا يظهر وجه وضعها قبل السور الطوال مع أنها سورة قصيرة. الثانية: أنها تشير إلى الغرض المقصود وهي ما يسمى براعة الاستهلال، لأن ذلك يهيئ السامعين لسماع تفصيل ما سيرد عليهم فيتأهبوا لتلقيه.. الثالثة: أن تكون المقدمة من جوامع الكلم"(١٦).

ثانياً: دلالات اشتمال الفاتحة على المقاصد العامة للدين:

بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن سورة الفاتحة تضمنت المقاصد العامة للدين والمطالب العالية أكمل تضمن على سبيل الإجمال وعلى سبيل التفصيل. حيث أوضح ابن القيم شمول الفاتحة لجميع مقاصد الدين التي قامت عليها الكتب والشرائع السابقة. يقول ابن القيم في هذا المعنى:

"وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب: انتهى على هاتين الكلمتين [يقصد: إياك نعبد وإياك نستعين]، وعليهما مدار العبودية والتوحيد. حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب؛ جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن. وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في (إياك نعبد وإياك نستعين)(١٧)".

ولا شك في أن تضمن سورة الفاتحة لهذه المقاصد العليا والغايات النبيلة ينعكس على فكر الإنسان ومشاعره، بطريقة تحرر الإنسان من كل عبودية غير عبودية ربه، كما تخلصه من ربقة الأوهام والخرافات، وذلك من خلال (إياك نعبد وإياك نستعين).

يقول سيد قطب في ظلال قوله تعالى (إياك نعبد وإياك نستعين): "وهنا كذلك مفرق طريق، مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية، وبين العبودية المطلقة للعبيد. وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع. وإذا كان الله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات"(١٨).

وقد بيّن ابن القيم(١٩) المطالب العالية المتضمنة في سورة الفاتحة في الجوانب الآتية:

أولاً: التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء هي: الله، والرب، والرحمن، وهذه الأسماء الثلاثة هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وقد بُنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة. فـ "إياك نعبد" مبني على الإلهية، و "إياك نستعين" على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة، فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته.

ثانياً: "إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها. وتفرّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل. وكل هذا تحت قوله "مالك يوم الدين".

ثالثاً: إثبات النبوات من جهات عديدة تجلت في المواضع الآتية:

الأول: كونه رب العالمين يقتضي أن يدل عباده على ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وما يضرهم فيهما بواسطة الرسل والأنبياء.

الثاني: مأخوذ من اسم "الله" ومعناه المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الثالث: اسم "الرحمن" يتضمن إرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب، لأن اقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح.

الرابع: ذكر "يوم الدين"، وهو اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثبتهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة التي قامت على الناس جميعاً بإرسال رسله وإنزال كتبه.

الخامس: قوله تعالى "إياك نعبد"؛ لأن طريق التعبد وما يُعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله. وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول.

السادس: قوله "اهدنا الصراط المستقيم"؛ وذلك لأن الهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل.

لقد تضمنت سورة الفاتحة أصولاً عظيمة: "أولها التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنته (إياك نعبد). والثاني: التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبرؤ من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنته (وإياك نستعين). الثالث: الرغبة في التحلي بالرشد والاهتداء بما تضمنته (اهدنا الصراط المستقيم). الرابع: الرغبة في التحلي بالأسوة الحسنة بما تضمنته (صراط الذين أنعمت عليهم). الخامس: التهمم بالسلامة من الضلال الصريح بما تضمنه (غير المغضوب عليهم). السادس: التهمم بسلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل المموه بصورة الحق، وهو المسمى بالضلال لأن الضلال خطأ الطريق المقصود بما تضمنه (ولا الضالين)[٢٠].

إن ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من المقاصد العامة والمطالب العالية التي تمثل خطوط الهداية المستقرة، يجعل هذه السورة تستحق كونها "أعظم سورة في القرآن الكريم" كما وصفها بذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم.

ومما تضمنته سورة الفاتحة من المقاصد العليا اشتمالها على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم. يقول الإمام ابن القيم في بيان اشتمال سورة الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة:

"التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد. ونوع في الإرادة والقصد، ويُسمى الأول: التوحيد العملي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي، لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني بالقصد والإرادة. وهذا الثاني نوعان: توحيد في الربوبية وتوحيد في الإلهية، فهذه ثلاثة أنواع، فأما توحيد العلم: فمداره على إثبات صفات الكمال، وعلى نفي التشبيه والمثال. والتنزيه عن العيوب والنقائص. وقد دل على هذا شيئان: مجمل، ومفصل. أما المجمل فإثبات الحمد له سبحانه. وأما المفصل: فذكر صفة الإلهية، والربوبية، والرحمة والملك. وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات"(٢١).

إن سورة الفاتحة جامعة لمقاصد الدين، ومن ذلك شمولها اسم "الله" في الآية الأولى منها، واسم "الله" يدل على الألوهية التي تتضمن الربوبية والأسماء والصفات. يقول الإمام ابن القيم:

"فعلم أن اسمه "الله" مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى، دال عليها بالإجمال. والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم "الله"، واسم "الله" دال على كونه مألوهاً معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك. والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله. إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم؛ ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أفعاله". ولما كان اسم "الله" هو الاسم الجامع، فقد أضيفت سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم "الله"، كقوله تعالى **(ولله الأسماء الحسنى)**، ويُقال: "الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله. ولا يقال الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك"(٢٢).

ويقدم الإمام ابن القيم مثلاً رائعاً في الإبداع وهو يحلل معاني الأسماء الثلاثة الواردة في سورة الفاتحة: الله والرب والرحمن، ويلفت النظر إلى الارتباط الوثيق بين الخلق والأمر والثواب والعقاب وبين هذه الأسماء الثلاثة. يقول الإمام ابن القيم:

"وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة. وهي "الله، والرب، والرحمن" كيف نشأ عنها الخلق والأمر، والثواب، والعقاب؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم؟ فلها الجمع والفرق. فاسم "الرب" له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر

عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته. وكل من في السماوات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء،وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبات والخشية، والتذلل والخضوع إلا له. وهاهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة. فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم. فالدين والشرع والأمر والنهي، مظهره وقيامه من صفة الإلهية والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك. وهو ملك يوم الدين... وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده. فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة"[٢٣].

والرب من الأسماء الواردة في سورة الفاتحة، ولهذا الاسم ارتباط وثيق بالتربية فالرب في الأصل – كما يرى الإمام البيضاوي، بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً[٢٤].

والرب يتضمن معاني الملك والإصلاح والسيادة. يقول الإمام ابن الجوزي في هذا المعنى: "والرب يقال على ثلاثة أوجه: أحدها المالك، يقال رب الدار، والثاني المصلح يقال رب الشيء، والثالث السيد المطاع، قال تعالى **(فيسقي ربه خمراً)** [٢٥].

وهذه المعاني المذكورة لها علاقة بالتربية، لأن التربية تعهد وإصلاح للنشء، وهي مسؤولية تُعطي المعلمين نوعاً من السيادة، وتوجب على المتعلمين نوعاً من الطاعة والانقياد.

ويؤكد القرطبي ارتباط اسم الرب بالتربية بقوله: "فالرب المالك... والرب السيد... والرب المصلح والمدبر والقائم... والرب المعبود... واختلف في اشتقاقه، فقيل: إنه مشتق من التربية، فالله سبحانه وتعالى مدبر لخلقه ومربيهم"[٢٦].

ومما تضمنته سورة الفاتحة من المقاصد العظيمة سؤال العبد ربه الهداية، والهداية تشمل هداية القلب واللسان والجوارح لما فيه خير الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة. وفي الهداية معان جامعة لكل ضروب الخير.

يقول الإمام ابن القيم مبيناً معنى الهداية:

"فالهداية هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة... وهي هدايتان مستقلتان، لا يحصل الفلاح إلا بهما، وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلاً وإجمالاً، وإلهامنا له، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً. ثم خلق القدرة لنا على القيام بموجب الهدي بالقول والعمل والعزم. ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدى هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه"[٢٧].

وقد أورد الإمام البيضاوي رحمه الله معاني أخرى للهداية تسير في السياق نفسه الذي سلكه الإمام ابن القيم. يقول رحمه الله: "ولكنها (أي الهداية) تنحصر في أجناس مترتبة، الأول: إضافة القوى التي بها يتمكن المرء من الاهتداء إلى مصالحه كالقوة العقلية والحواس الباطنة والمشاعر الظاهرة. الثاني: نصب الدلائل الفارقة بين الحق والباطل والصلاح والفساد، وإليه أشار حيث قال: وهديناه النجدين... الثالث: الهداية بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإياها عني بقوله: وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، وقوله: إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم. الرابع: أن يكشف على قلوبهم السرائر ويريهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام والمنامات الصادقة، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء وإياه عني بقوله: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده، وقوله: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"[٢٨].

ولما كانت الهداية إلى الصراط المستقيم تتضمن معرفة الحق والعمل به، فقد بينت سورة الفاتحة أن الناس ينقسمون في معرفتهم الحق والعمل به إلى ثلاثة أقسام: المُنعم عليهم الذين عرفوا الحق واتبعوه، والمغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وأعرضوا عنها ظلماً وعلواً، والضالون الذين لم يعملوا بالحق بسبب جهلهم به. وبذلك تستوعب هذه السورة العظيمة أصناف الناس الثلاثة في تعاملهم مع الحق علماً وعملاً.

يقول الإمام ابن القيم في هذا المعنى:

"فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة. لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق، أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون عاملاً بموجبه أو مخالفاً له. فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها البتة. فالعالم بالحق العامل به: هو المنعم عليه. وهو الذي زكّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح... والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه. والجاهل بالحق هو الضال. والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل. والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل. فكل منهما ضال مغضوب عليه. ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به. ومن هاهنا كان اليهود أحق به... والجاهل بالحق أحق باسم الضلال. ومن هنا وصف النصارى به"[٢٩].

ومن المطالب العالية التي تضمنتها سورة الفاتحة، أنها قسمةٌ بين الرب وعبده، وأن الله عز وجل وعد عبده أن يُعطيه سؤله ويجيب دعاءه المشمول في سورة الفاتحة، وهو دعاء عظيم جامع يتم به سعادة الدنيا والآخرة.

جاء في صحيح مسلم رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي... فإذا قال إياك نعبد وإياك نستعين، قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[٣٠].

ويقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه للحديث السابق: "المراد بالصلاة هنا الفاتحة، سميت بذلك لأنها لا تصح إلا بها، كقوله صلى الله عليه وسلم: "الحج عرفة". ففيه دليل على وجوبها بعينها في الصلاة. قال العلماء: والمراد قسمتها من جهة المعنى، لأن نصفها الأول تحميد لله تعالى، وتمجيد وثناء عليه، وتفويض إليه، والنصف الثاني سؤال وطلب وتضرع وافتقار"[٣١].

وسورة الفاتحة اشتملت على أشرف المطالب التي يرجوها العبد، وهو سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا يتطلب أن يُقدم العبد -بين يدي طلبه هذا- أشرف الوسائل وأجلها لبلوغ غايته وتحصيل طلبه.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

"ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده كيفية سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه، وتمجيده، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم؛ توسل إليه بأسمائه وصفاته، وتوسل إليه بعبوديته. وهاتان الوسيلتان لا يكاد يرد معهما الدعاء... وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه، وتمجيده، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده. ثم جاء سؤال أهم المطالب، وأنجح الرغائب، وهو الهداية، بعد الوسيلتين، فالداعي به حقيق بالإجابة"[٣٢].

ولماذا يسأل المسلمون ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم مع أنهم مهتدون موحدون؟ يجيب -عن هذا التساؤل- الإمام ابن الجوزي رحمه الله بثلاثة أجوبة: "أحدها أن المعنى اهدنا لزوم الصراط فحذف اللزوم، قاله ابن الأنباري. والثاني أن المعنى ثبتنا على الهدى، تقول العرب للقائم: قُم حتى آتيك أي اثبت على حالك. والثالث أن المعنى زدنا هدى"[٣٣].

ثالثاً: الدلالات التربوية المتضمنة في مفهوم العبودية:

أشار الباحث فيما مضى إلى أن الإمام ابن القيم رحمه الله أكد بأن مقاصد القرآن الكريم جمعت في الفاتحة، ومقاصد الفاتحة جمعت في قوله تعالى: **"إياك نعبد وإياك نستعين"**.

وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في بيان معنى العبودية، ومنزلتها، ومراتبها، وقواعدها، واختلاف الناس في أفضل مقاماتها، وانقسام الناس بحسب أصليها: الإخلاص والمتابعة، وقواعدها التي تقوم عليها، وأقسام الناس في مواقفهم من العبادة والاستعانة.

وسوف يبين الباحث -بإذن الله- موقف الإمام ابن القيم من القضايا السابقة على النحو التالي:

١- معنى العبادة وغايتها وحكمتها:

بيّن الإمام ابن القيم أن العبادة الحقة لا تتم إلا باجتماع أصلين هما: غاية المحبة وغاية الذل والخضوع. يقول -رحمه الله- في ذلك: "والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع. والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة، لم تكن عابداً له، حتى تكون محباً خاضعاً"(٣٤).

ثم انتقل الإمام ابن القيم موضحاً سر العبودية وغايتها وحكمتها قائلاً: "فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها: إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل، ولم يعطلها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلهاً، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها... فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق، ولها خلقوا، ولها أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنار؟... وقد صرح تعالى بهذا في قوله: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" فالعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها. قال الله تعالى: "أيحسب الإنسان أن يُترك سُدى" أي مهملاً. قال الشافعي: لا يؤمر ولا يُنهى، وقال غيره: لا يُثاب ولا يعاقب، والصحيح الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها، وحقيقة العبادة امتثالهما"(٣٥).

وبذلك يظهر الترابط الوثيق بين الألوهية (العقيدة) والعبادة من جهة، وبين الأمر والنهي، والثواب والعقاب من جهة أخرى. فالعبادة من لوازم العقيدة، والثواب والعقاب من لوازم الأمر والنهي. ثم عمّق الإمام ابن القيم بحثه في العبادة وما تتضمنه من المحبة والطاعة بطريقة تحليلية استنباطية فذة حيث قال:

"فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله. فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه. وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها، فهي إنما تتحقق بإتباع أمره واجتناب نهيه. فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله علماً عليها، وشاهداً لمن ادعاها، فقال تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله ورسوله فاتبعوني يحببكم الله" فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم... ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هي حب الله ورسوله، وطاعة أمره، ولا يكفي ذلك في العبودية، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة، ولا يهديه الله. قال الله تعالى: **(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)** (التوبة:٢٤).

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه، أو معاملة أحدهم على معاملة الله، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه، وإخبار بخلاف ما هو عليه. وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله"[٣٦].

وبذلك يظهر جلياً أن العبودية -بمفهومها الصحيح- تُحدث تغييراً جوهرياً في شخصية الإنسان بجميع أبعادها. فهي تبدأ بمفهوم الألوهية الذي يحدد مسار العبودية الحقة، وتؤثر في البعد الوجداني عندما تضبط الحب والخوف والرجاء والتوكل لدى الإنسان، ثم تبلغ مداها عندما تتحول إلى سلوك ظاهر يتمثل في التزام اللسان وسائر الجوارح بأوامر الله سبحانه وتعالى. وبمعنى آخر تساهم العبادة في تشكيل شخصية الإنسان بأبعادها الثلاثة: البعد المعرفي، والبعد الانفعالي الوجداني والبعد النزوعي المسلكي.

٢- منزلة العبادة:

أظهر الإمام ابن القيم رحمه الله منزلة العبادة من الدين، من خلال بيان اتفاق الرسل جميعاً على الدعوة إلى "إياك نعبد وإياك نستعين"، ووصف أكمل خلق الله وأقربهم إليه بالعبودية[٣٧]

وعزز الإمام ابن القيم بيانه لمنزلة العبادة وشرفها بقوله: "... ووصف أكـرم خلقـه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته. فقال تعالى: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا" وقال تبارك وتعالى: "تبارك الذي نزل الفرقان على عبده" وقال: "الحمـد لله الذي أنزل على عبده الكتاب" فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه.. وقال: "وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا" فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال: "سـبحان الذي أسرى بعبده ليلاً" فذكره بالعبودية في مقام الإسراء، وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده فقال تعالى: "فبشر عباد الذي يستمعون القول فيتبعون أحسنه" وجعل الأمن المطلق لهم، فقال تعالى: "يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنـا وكـانوا مسـلمين" وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة فقال: "إن عبادي ليس لك عليهم سـلطان إلا مـن اتبعك من الغاوين".. وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الـدين، وهو الإحسان. فقال في حديث جبريل –وقد سأله عن الإحسان–: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[٣٨].

إن ما ذكره الإمام ابن القيم يوضح أن تحقيق العبودية هو جوهر التكليـف ومحـور دعوة الرسل، ولذلك قال تعالى: **"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون"**. فالعبودية غاية خلـق الإنسان ومن أجلها نُصبت الموازين وخلقت الجنة والنار. ولا شك في أن توجيـه العبوديـة الخالصة لله بما تنطوي عليه من كمال المحبة وكمال الخضوع يضبط سلوك الإنسـان فكـراً وعملاً وانفعالاً. وبذلك تظهر العلاقة الوثيقة بين عبودية الإنسان لخالقه وارتقائه في مـدارج التزكية ودرجات التربية.

٣. أفضل العبادة وأنفعها:

لقد أطال الإمام ابن القيم النفس في بيان اختلاف أهل مقام: "إياك نعبد" فـي أفضـل العبادة وأنفعها، فوضح أنهم في ذلك أربعة أصناف، أخذ كل صنف مـنهم بمجموعـة مـن النصوص ليؤيد بها رأيه الذي ذهب إليه. ثم فنّد آراء كل طرف من تلك الأطـراف، ورجـح رأي من اتسم منهجهم في النظر إلى النصوص بالشمول والتوازن، وهذا يدل على دقة الفهـم والتحليل والنظر لدى الإمام ابن القيم. ولأهمية ما ذكره الإمام ابن القيم في هذا الخصـوص، فسوف ينقل الباحث جزءاً من كلامه رحمه الله، يقول الإمام ابن القيم:

"ثم أهل مقام إياك نعبد" لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثـار والتخصـيص أربع طرق فهم في ذلك أربعة أصناف:

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها: أشقها على النفوس وأصعبها. قالوا: لأنه أبعـد الأشياء من هواها، وهو حقيقة التعبد. قالوا: والأجر على قدر المشقة... وهؤلاء هـم أهـل

المجاهدات والجور على النفوس. قالوا: وإنما تستقيم النفوس بذلك، إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثاني: قالوا: أفضل العبادات التجرد، والزهد في الدنيا، والتقلل منها غاية الإمكان، واطراح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها. ثم هؤلاء قسمان: فعوامّهم ظنوا أن هذه غاية... وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة. وخواصهم رأوا هذا مقصوداً لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على الله... والتوكل عليه، والاشتغال بمرضاته. فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان... ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون للمتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله. فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه... ثم هؤلاء أيضاً قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته، ومنهم من يقوم بها، ويترك السنن والنوافل، وتعلم العلم النافع لجمعيته.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد... فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل... واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفّاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟ ... وقالوا: وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم"... واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيء"... واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه... واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب.

الصنف الرابع: قالوا: إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما هو الحال في الأمن. والأفضل في وقت حضور الضيف مثلاً القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب... والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعلم الجاهل الإقبال على تعليمه، والاشتغال به... والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل... والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته، وحضور جنازته وتشييعه، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك... والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم. فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم

ولا يؤذونه. والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه، وعزلتهم في الشر، فهي أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلّله فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم[٣٩].

ويؤيد الإمام ابن القيم هذا الصنف الرابع من الأصناف الثلاثة السابقة فيقول: "وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته. فهو يعبد الله على وجه واحد. وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت. فمدار تعبّده عليها... فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات. بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه، فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقاً"[٤٠].

لقد عرض الإمام ابن القيم أصناف الناس الأربعة في أفضل العبادات وأنفعها، أدلة كل صنف منهم بعدالة وموضوعية، ثم ضعّف آراء الأصناف الثلاثة الأولى وأطلق عليهم وصف "أهل التعبد المقيد"، ورجح رأي الصنف الرابع ووصف أهله بأنهم "أهل التعبد المطلق" وذلك لأن أصحاب الصنف الرابع تميزوا عن الأصناف الثلاثة الأولى بشمول الرؤية وتوازنها في فهم النصوص الشرعية، ولاحظوا مراعاة النصوص لجميع الأحوال والأزمان، كما فطنوا إلى شمول مفهوم العبودية لحياة الإنسان من جميع جوانبها.

إن مفهوم العبودية بالمعنى الذي ذهب إليه أصحاب الصنف الرابع هو المفهوم الذي يصلح لبناء الإنسان الذي يقوم بحق ربه، وحق نفسه، وحق مجتمعه وأمته، من خلال القيام بمتطلبات الخلافة التي تقتضي أعلى درجات الإيجابية المؤدية إلى عمارة الأرض بالمعتقدات الصحيحة، والأفكار النافعة، والأعمال القويمة. وذلك كله ما تقتضيه التربية الإسلامية للإنسان.

٤. العبودية نوعان: عامة وخاصة:

يوضح الإمام ابن القيم أن العبودية نوعان: عامة وخاصة، فالنوع الأول يدخل فيه جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، والنوع الثاني يختص بأهل الطاعة والولاية.

قال الإمام ابن القيم:

"العبودية نوعان: عامة، وخاصة. فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم. فهذه عبودية القهر والملك. قال تعالى: **(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ**

الْجِبَالُ هَدّاً، أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً) (مريم:٨٨-٩٣) ، فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم. وقال تعالى: "ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء" فسماهم عباده مع ضلالهم.... وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: "يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون" وقال: "فبشر عباد الذي يستمعون القول فيتبعون أحسنه"... فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته: هم عبيد إلهيته"[٤١].

ثم بيّن الإمام ابن القيم أن انقسام العبودية إلى خاصة وعامة مبنيٌّ على أصل معنى العبودية في اللغة، حيث قال:

"وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة: لأن أصل معنى اللفظة: الذل والخضوع. يقال: "طريق معبد" إذا كان مذللاً بوطء الأقدام، "فلان عبّده الحب" إذا ذللّه، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعاً واختياراً، وانقياداً لأمره ونهيه، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً"[٤٢].

إن تقسيم الإمام ابن القيم للعبودية بأنها عبودية عامة وعبودية خاصة يرتبط بمقتضيات الربوبية والألوهية. فالربوبية تقتضي الخلق والرزق والتصرف والإماتة والإحياء، وهذه الأمور يخضع لها جميع الخلق برهم وفاجرهم. والألوهية تقتضي إفراد الله سبحانه بالعبودية التي تعنى كمال الحب وكمال الخضوع والتذلل طوعاً، وهذا لا يكون إلا من أهل الطاعة والولاية.

ولا شك في أن الإنسان العاقل هو الذي يتبع داعي الفطرة، وهادي العقل الرائد، ومن ثم تتوجه عزيمته نحو العمل الصالح طوعاً، وهذا ما تصبوا إليه التربية الإسلامية من خلال تحرير إرادة الإنسان، وتصحيح أساليب تفكيره، وتقويم سلوكه.

٥- العبودية تتحقق بالإخلاص والمتابعة:

إن العبودية لا يمكن أن تتحقق إلا بالإخلاص لله عز وجل، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وينقسم الناس في هذا الشأن إلى أربعة أقسام بيّنها الإمام ابن القيم بقوله:

"والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين [الإخلاص والمتابعة] أيضاً إلى أربعة أقسام:

أحدها: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة: وهم أهل "إياك نعبد" حقيقة، فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده. لا يريدون بذلك من الناس جزاءً ولا شكوراً... وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة. فليس عمله موافقاً للشرع، ولا هو خالصاً للمعبود، كأعمال المتزينيين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار

الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل... وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلــم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات، والريــاء والســمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا من الاتباع والإخلاص والعلم. فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله، لكنها على غير متابعة الأمــر، كجهــال العبــاد، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد الله بغير أمره، واعتقد قربه على الله فهــذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة. وأمثــال ذلك.

الضرب الرابع: مَنْ أعماله على متابعة الأمر، لكنها لغير الله، كطاعة المــرائين، وكالرجــل يقاتل رياءً وحمية وشجاعة، ويحج ليُقال، ويقرأ القرآن ليُقال، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها، لكنها غير صالحة فلا تُقبل"[٤٣].

يتضح من خلال تصنيف الإمام ابن القيم السابق للناس بحسب الإخلاص والمتابعة أن الصنف الأول هو الذي اتصف بـــ "إياك نعبد" على الحقيقة، لأنه جمع في عبادته بين إخلاص القصد لله عز وجل، ومتابعة الشارع فيما أمر. وأما الصنف الثاني فأصحابه هم شر النــاس لأنهم فقدوا صحة القصد (الإخلاص) وسلامة العمل (المتابعة). والصــنف الثالــث والرابــع [illegible]

الطاعة لا جوهرها، لأنه فقد شرط الإخلاص وسلامة القصد.

ومن ذلك يتبين أن أهل الإخلاص والصواب الذين هم أهل "إياك نعبــد" هــم الــذين أصابوا مقاصد التربية الإسلامية الصحيحة التي تقوم على إصلاح باطن الإنسان وظاهره، من خلال غرس العقيدة الصحيحة، والاتجاهات السليمة، وتنمية العزيمة والإرادة، وتحرير القصد، وبناء السلوك القويم.

٦. مراتب العبودية وقواعدها:

أكد الإمام ابن القيم على أن العبودية لها مراتب علمية، ومراتب عملية، حيث يقــول: "للعبودية مراتب، بحسب العلم والعمل. فأما **مراتبها العلمية** فمرتبتان: إحداهما: العلــم بـــالله، والثانية: العلم بدينه. فأما العلم به سبحانه، فخمس مراتب: العلم بذاتــه، وصــفاته، وأفعالــه، وأسمائه، وتنزيهه عما لا يليق به. والعلم بدينه مرتبتان أحدهما: دينه الأمري الشرعي، وهو الصراط المستقيم الموصل إليه، والثانية: دينه الجزائي المتضمن ثوابه وعقابه. وقد دخل فـــي هذا العلم بملائكته وكتبه ورسله. وأما **مراتبها العملية** فمرتبتان: مرتبة لأصــحاب اليمــين،

ومرتبة للسابقين المقربين. فأما مرتبة أصحاب اليمين، فأداء الواجبات، وترك المحرمات، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات، وترك بعض المستحبات. وأما مرتبة المقربين: فالقيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم، متورعين عما يخافون ضرره. وخاصتهم: قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية. فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلاً عنها بالعبادات، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله"[٤٤].

إن كلام الإمام ابن القيم السابق يُبين أن الإنسان يمكن أن يرتقي بنفسه من الجوانب العلمية والعملية عن طريق التربية الفاعلة التي تمكن الإنسان من استثمار استعداداته وقدراته العلمية والعملية لتحقيق أعلى درجة من المهارات النظرية والعملية الممكنة، وقد وضح الإمام ابن القيم في كلامه السابق أن الناس متفاوتون فيما يبلغونه من درجات علمية وعملية، وأن بينهم فروقاً واضحة في ذلك، بل بيّن أن هذه الفروق موجودة بين المؤمنين أنفسهم وذلك لتفاوتهم في الإيمان والعلم والعمل. وقرر القرآن هذه الحقيقة في قوله تعالى: **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)**(فاطر:٣٢).

ومن المعلوم أن التربية الجادة تساهم بشكل واضح في ارتقاء الإنسان من مرتبة إلى أخرى نحو الكمال البشري.

ووضح الإمام ابن القيم أن مراتب العبودية السابقة المتحققة في "إياك نعبد" تستند إلى أربع قواعد تشمل قول اللسان، وقول القلب، وعمل القلب، وعمل الجوارح. يقول رحمه الله: "وبني "إياك نعبد" على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان، والقلب، وعمل القلب والجوارح. فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع. فأصحاب "إياك نعبد" حقاً هم أصحابها. فقول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله. وقول اللسان: الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، تبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره، وتبليغ أوامره. وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة. وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك"[٤٥].

وبذلك يُعلم أن رحى العبودية تدور على استقامة القلب واللسان والجوارح، فالقلب له قولٌ يتمثل في التصديق بما أخبر به الله سبحانه وتعالى، وله عمل يتمثـل فـي الانفعـالات المترتبة على الإيمان والتصديق كحب الله، والتوكل عليه والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له. واللسان تتمثل عبوديته في الإخبار عن الله وشرعه وأمـره وفقـاً لمقتضـيات الـوحي الصحيح، والدعوة إلى شرع الله والذب عنه وإبطال البدع المخالفة له. وأما عمل الجوارح فهو الذي يبرهن على صدق القلب في قوله وعمله، وصدق اللسان في إعرابه عمـا يـؤمن بـه صاحبه، ولم يُغفل الإمام ابن القيم بيان رجحان أعمال القلوب على أعمال الجوارح من حيث المنزلة عند الخالق عز وجل. وذلك لأن القلب، وهو جوهر الإرادة والإيمان، إذا صلح فاض صلاحه على اللسان والجوارح لتستقيم باستقامته. قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسـد كلـه ألا وهـي القلب"(٤٦).

إن العبودية -كما بيّن الإمام ابن القيم- موزعة على القلب واللسان والجوارح، وأحكام العبودية خمسة هي: الواجب، والمستحب، والمباح، والمكروه، والمحرم. وهذه الأحكام التعبدية الخمسة موزعة على القلب واللسان والجوارح، وينشأ من ذلك خمس عشرة قاعدة تفصـيلية تدور عليها رحى العبودية.

وفصل الإمام ابن القيم هذه القواعد بقوله: "ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية. وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب، واللسـان، والجـوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومسـتحب، وحـرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح"(٤٧).

ثم بين ابن القيم توزيع الأحكام الخمسة السابقة على القلب، فذكر العبـادات الواجبـة على القلب. وهي: الإخلاص والتوكل والمحبة، والصبر، والإنابـة، والخـوف، والرجـاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وكل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجـب مستحق، وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين. ثم ذكر المحرمات على القلب كالكبر والرياء والعجب والحسد والغفلة والنفاق، وقرر رحمة الله أن هذه الكبـائر الباطنة أشد تحريماً من الكبائر الظاهرة كالزنا وشرب الخمر(٤٨).

ثم انتقل رحمه الله إلى عبوديات اللسان الخمس، فذكر من عبادات اللسـان الواجبـة النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يتوقف صحة الصلاة عليه مـن القـرآن، ورد السـلام، وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث. ثم ذكر من عبادات اللسان المستحبة تلاوة القـرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع. وأما ما يحرم على اللسان فمنه النطق بمـا يبغضـه الله

ورسوله، والقذف وسب المسلم، والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. ومن المكروهات في حق اللسان النطق بالنذر، والحلف المكروه، وسؤال الخلق عند الحاجة[٤٩].

وتكلم الإمام ابن القيم عن عبوديات الجوارح، وجعل الجوارح شاملة للحواس الخمس. وبين العبوديات الخمس المتعلقة بكل حاسة من الحواس الخمس. وبدأ بحاسة السمع فذكر ما يجب على السمع من استماع ما أوجبه الله ورسوله عن الإسلام والإيمان، وقراءة القرآن في الصلاة إذا جهر بها الإمام، وخطبة الجمعة. وبين ما يحرم على العبد الاستماع إليه، كاستماع الكفر والبدع، وأسرار من يخفي سره ولا يحب الاطلاع عليه، وأصوات النساء الأجانب عند خوف الفتنة، والمعازف وآلات الطرب واللهو. وأما السمع المستحب فمثل استماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله. والمكروه: عكسه، وهو استماع كل ما يكرهه الله ولا يعاقب عليه. والمباح ظاهر[٥٠].

ثم ذكر عبوديات النظر الخمس فقال: "وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك. والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً، وبغيرها إلا لحاجة كنظر الخاطب... والطبيب.. والمستحب النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً، والنظر في المصحف.. والنظر في آيات الله المشهودة، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته. والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه... والمباح: النظر الذي لا مضرّة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة[٥١].

ثم تحدث ابن القيم عن حاسة الذوق وبين عبودياتها الخمس بقوله: "وأما الذوق الواجب فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت... والذوق الحرام: كذوق الخمر والسموم القاتلة. وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة.. والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل، مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل... والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان"[٥٢].

"وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب: كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيها... ومن هذا شم المقوم ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم.. وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات... وأما الشم المستحب: فشم ما يُعينك على طاعة الله يقوّي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا: هدية الطيب والريحان إذا أهديت إليك... والمكروه: كشم طيب الظلمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك. والمباح: ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه

مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع. وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فـاللمس الواجـب: كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها. والحرام: لمس ما لا يحـل مـن الأجنبيات. والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عـن الحـرام وإعفـاف أهلـه. والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه... والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية"[٥٣].

ويوضح الإمام ابن القيم أن أحكام العبودية الخمسة تترتب أيضاً على الـبطش باليـد والمشي بالرجل، حيث قال: "وهذه المراتب أيضاً مرتبة على البطش باليد والمشي بالرجـل، وأمثلتها لا تخفى. فالتكسب المقدورللنفقة على نفسه وأهله وعياله واجـب... ومـن الـبطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم. والحرام: كقتل النفس التي حرم الله، ونهب المال المغصوب، وضرب ما لا يحل ضربه ونحو ذلك... وأمـا المكـروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيـه فـي الـدنيا والآخرة. والمستحب :كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعاً... أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقي... ومنه: لمس الركن بيده في الطـواف. والمباح: ما لا مضرة فيه ولا ثواب. وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعـات ... والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي إلى حكـم الله ورسـوله إذا دُعـي إليـه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه.. والحرام: المشي إلى معصية الله... وكذلك تعلق هـذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً. فواجبه في الركوب في الغزو والجهـاد والحـج الواجـب. ومستحبه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الـرحم، وبـر الوالـدين... وحرامه: الركوب في معصية الله عز وجل. ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تَركُـه خيرٌ من فعله، ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر"[٥٤].

إن الإمام ابن القيم –من خلال بيانه لمراتب العبودية، وقواعدها العامة والتفصـيلية– بين بجلاء أن العبودية موزعة على كيان الإنسان كله، قلبه ولسانه وسائر جوارحه. وهذا يدل بوضوح على أن العبودية هي جوهر التربية التي تستهدف تغيير معتقدات الإنسان واتجاهاته الفكرية وسلوكه العملي تمهيداً للتغيير الأشمل الذي لا يتم إلا من خلال تغيير مـا بـالأنفس. يقول تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)** (الرعد:١١) وبذلك يتبـين أن التربية الإسلامية تسعى إلى تنقية قلب الإنسان وتدريب لسانه وسائر حواسه وجوارحه ليمتلك المهارات اللازمة للارتقاء بالمجتمع الإنساني في حدود ما يحقق غاية العبودية. وهذا يقتضي تجنب استعمال حواس الإنسان فيما حرّمه الشرع أو كرّهه.

٧ أقسام الناس بحسب موقفهم من العبادة والاستعانة:

بيّن الإمام ابن القيم أقسام الناس في العبادة والاستعانة، وجعلهم على أربعة أقسام جاءت على النحو الآتي:

القسم الأول: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، وهذا القسم أجلّها وأفضلها. ويصف ابن القيم أهل هذا القسم بقوله: "فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يُسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته... فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه"[٥٥].

القسم الثاني: المعرضون على عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، وإن سأل أحد هؤلاء ربه واستعان به فإنما يستعين به على حظوظه وأهوائه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه؛ فإنه سبحانه وتعالى يسأله من في السماوات والأرض من أوليائه وأعدائه، ويعطي هؤلاء وهؤلاء. وإن إجابة الله تعالى لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل ربما يسأله عبده الحاجة فيقضيها له وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حمايةً وصيانةً وحفظاً لا بخلاً[٥٦].

القسم الثالث: الذين لهم نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان: أحدهما: القدرية القائلون بأن الله تعالى لا يُعين العبد على الفعل إعانة خاصة، لأن إعانته اقتصرت على تزويد الإنسان بالآلات وسلامة الحواس وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل. فلم يبق بعد ذلك إعانة يسألها العبد ربه. وبذلك ساوت القدرية بين أولياء الله وأعدائه في الإعانة. فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه. فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة. والنوع الثاني: الذين لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص في التوكل والاستعانة، فلم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف. فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم، وهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم[٥٧].

القسم الرابع: الذين لهم استعانة بلا عبادة، فهم يشهدون تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لكنهم لم يدوروا مع ما يحبه الله ويرضاه، حيث إنهم توكلوا عليه واستعانوا به على حظوظ أنفسهم وشهواتها وأغراضها من جنس الملك والجاه والمال فأعطاهم الله ما طلبوا، لأنه يعطي ذلك للبر والفاجر والمؤمن والكافر[٥٨].

إن تصنيف الإمام ابن القيم السابق للناس في العبادة والاستعانة، يُبين بوضوح أن علاقة العبد بربه لا يمكن أن تصلح إلا بشرطين هما: العبادة والاستعانة. والعبادة تمثل ما يبذله العبد من عمل قلبي وفكري وبدني لتحقيق رضى الله عز وجل، أما الاستعانة فهي طلب العبد من ربه الإعانة على فعل الطاعة، وهذا يشمل شرح صدر العبد للطاعة، وانعقاد عزمه

وقصده على أدائها، وتنشيطه للقيام بها على أكمل وجـــه، واســتكماله لشــروطها وأركانهــا وواجباتها، وانتفاء موانع قبولها من الشرك والرياء وغير ذلك.

إن علاقة العبد بربه لا تصلح بمجرد القصد الحسن والنيـــة الصـــالحة حتـــى يأخـــذ بالأسباب ويستعين عليها بربه عز وجل. كما أن العبد لو أخذ بالأسباب وأوقعها على الصورة الصحيحة للعبادة دون إخلاص النية واستقامة القصد، فإنه كذلك لا يحقق المطلوب منه شرعاً.

إن التربية الإسلامية ترتقي بالإنسان من خلال تخليص عبوديته من الشرك والشـــك وغير ذلك، حتى تصبح خالصة لربه عز وجل، ومن خلال تقويم استعانته بربه على أداء مـــا يُرضيه. والأفراد الذين يكتفون بسلامة القصد وحسن النية دون أن يكلفـــوا أنفســـهم بالأخـــذ بأسباب الاستعانة تبقى عقيدتهم مجرد أماني وأحلام لا رصيد لها من الواقع، كمـــا أن الـــذين يأخذون بأسباب الاستعانة دون تحرير قصدهم وتحديد غايتهم يكونون كمن يكد ويكدح علـــى غير هدى، ويتعب وينصب دون تحديد وجهة لعمله أو غاية لسعيه.

ولذلك تحرص التربية الإسلامية على بناء إرادة الإنسان المتمثلة في إخـــلاص نيتـــه وتحرير قصده، وبناء قدرات الإنسان ومهاراته المستمدة من استعانته بربه عز وجل. وبـــذلك يتم ضبط باطن الإنسان وظاهره.

رابعاً: الدلالات التربوية للجانب البياني في سورة الفاتحة:

من المعلوم أن القرآن الكريم معجز بألفاظه وبيانه، وأن هذا الإعجاز له حكم ودلالات تربوية عظيمة. ولذلك سوف تتناول الدراسة بعض الدلالات التربوية للجانب البياني في هـــذه السورة العظيمة، وستلقي الضوء على الجوانب البيانية التالية: الابتداء، والتقـــديم والتـــأخير، والإضافة، والإفراد والجمع، والوصف، والإيجاز والاختصار، والالتفات.

١. دلالات الابتداء:

إن ابتداء سورة الفاتحة بالحمد له دلالات تربوية واضحة؛ إذ إن مقاصد القرآن الكريم جمعت في سورة الفاتحة، ومقاصد القرآن الكريم تدور حول جلب المصـــالح ودرء المفاســـد، وتلك نعمة عظيمة تستحق الحمد لله عز وجل.

يقول الطاهر بن عاشور: "قدم الحمد لأن المقام هنا مقام الحمد، إذ هو ابتـــداء أولـــى النعم بالحمد وهي نعمة تنزيل القرآن الذي فيه نجاح الدارين، فتلك المنة من أكبر ما يحمد الله عليه من جلائل صفات الكمال لا سيما وقد اشتمل القـــرآن علـــى كمـــال المعنـــى واللفـــظ والغاية"[٥٩].

وقد نقل الإمام القرطبي عن شقشق بن إبراهيم قوله في تفسير الحمد لله: هو على ثلاثة أوجه: أولها إذا أعطاك الله شيئاً تعرف من أعطاك، والثاني أن ترضى بما أعطاك، والثالث ما دامت قوته في جسدك ألا تعصيه فهذه شرائط الحمد"(٦٠).

إن العبارة السابقة تبين أن الحمد يشمل جوانب ثلاثة أساسية في الإنسان تكلم عنها علماء النفس المعاصرون هي: الجانب المعرفي، والجانب الوجداني الانفعالي، والجانب النفسحركي.

إن ابتداء سورة الفاتحة بالحمد ثم ذكر أسماء الله عز وجل الدالة على الإلهية والربوبية والرحمانية والملك له دلالات مؤثرة بينها الإمام ابن القيم بقوله:

"في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، رب محمود، ورحمان محمود، وملك محمود. فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر"(٦١). ويرى الإمام القرطبي أن كلمة "الحمد لله" أفضل من الدنيا كلها، لأن الدنيا فانية وكلمة "الحمد لله" باقية لأنها من الباقيات الصالحات(٦٢).

وكلمة "الحمد لله" إذا قالها العبد في مقابل نعمة مهما عظمت، فإن هذه الكلمة تعدل هذه النعمة بل تفضل عليها، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أنعم الله على عبدٍ نعمة فقال: الحمد لله إلا كان الذي أعطاه أفضل مما أخذ"(٦٣).

ويوضح "السامرّائي" جوانب الدلالات اللغوية لكلمة "الحمد"، حيث يبيّن أن معنى الحمد الثناء على الجميل من النعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال، فهو ذكر محاسن الغير سواءً كان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة، أم على عطائه وتفضله على الآخرين. ولا يكون الحمد إلا للحي العاقل. واختيار الحمد -بخلاف المدح والشكر- له حكمة بليغة؛ ذلك لأن المدح أعم من الحمد، فالمدح قد يكون قبل الإحسان وبعده، وقد يكون لمن لا يستحق ذلك، لا في ذاته وصفاته ولا في أفعاله، بخلاف الحمد الذي لا يكون إلا لمن يستحق ذلك في ذاته وصفاته. ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن المدح. أما الشكر فإنه لا يكون إلا على النعمة، ولا يكون على الصفات الذاتية، فإنك لا تشكر الشخص على علمه أو قدرته وقد تحمده على ذلك. فكان اختيار الحمد أولى من الشكر لأنه أعم، فإنك تثني على الله بنعمه الواصلة إليك وعلى الخلق جميعاً، وتثني عليه بصفاته الحسنى الذاتية، وإن لم يتعلق شيء منها بك. فكان اختيار الحمد أولى من المدح والشكر(٦٤).

ثم يوضح "السامرائي" أيضاً أن إطلاق الحمد دون تقييده بفاعل معين كقولك أحمد أو نحمد فيه حكمة أخرى، حيث إن قولك أحمد يخبر عن حمدك أنت وحدك، ولم يُفد أن غيرك

حمده. وكذلك قولك نحمد الله يخبر عن المتكلمين ولم يفد أن غيركم حمده، في حين أن عبارة "الحمد لله" لا تختص بفاعل معين، فهو المحمود على وجه الإطلاق منك ومن غيرك. كما تعنى عبارة "الحمد لله" استحقاق الحمد لله دون ارتباط بفاعل معين. وقول "أحمد الله" أو "نحمد الله" مرتبط بزمن معين، لأن الفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال، في حين أن عبارة "الحمد لله" مطلقة غير مقيدة بزمن معين ولا بفاعل معين، فالحمد فيها مستمر غير منقطع. وقول "أحمد الله" جملة فعلية، و "الحمد لله" جملة اسمية. والجملة الفعلية تدل على الحدوث والتجدد، في حين أن الجملة الاسمية دالة على الثبوت، وهي أقوى وأدوم من الجملة الفعلية. والحمد عبارة عن صفة القلب، وهي اعتقاد كون ذلك المحمود متفضلاً منعماً مستحقاً للتعظيم والإجلال. فإذا قال الإنسان: "أحمد الله" وقلبه غافل عن التعظيم اللائق بجلال الله كان كاذباً في قوله. أما إذا قال "الحمد لله" سواء كان غافلاً أو مستحضراً لمعنى التعظيم فإنه يكون صادقاً، لأن معناه أن الحمد حق لله وملكه، وهذا المعنى حاصل سواءٌ كان العبد مشتغلاً بمعنى التعظيم والإجلال أو منشغلاً عنه(٦٥).

ثم بين "السامرائي" أن الله سبحانه وتعالى جاء باسمه العلم (الله) ولم يقل: الحمد للخالق أو القدير أو غيره من أسمائه الحسنى. وذلك لأنه إذا جاء بأي اسم غير اسمه العلم (الله) لدل ذلك على أنه استحق الحمد لما دل عليه اسمه المرافق للحمد. فلو قال الحمد للقادر لفهم من ذلك أنه يستحق الحمد للقدرة فقط، لكن عند ذكر الذات (الله) فإن ذلك يدل على أنه سبحانه يستحق الحمد لذاته: كما أن "الحمد لله" مناسبة لقوله بعدها "إياك نعبد"، لأن لفظ الجلالة (الله) يعني الإله المعبود بحق، ويدل على معنى العبودية، وهو الاسم الذي اقترن بالعبادة في القرآن أكثر من خمسين مرة(٦٦).

وبذلك يتبين أن ابتداء سورة الفاتحة بالحمد لله له أسرار ودلالات تربوية توضح بعض جوانب هذا الاختيار المعجز لهذه الكلمة لتكون في مطلع هذه السورة العظيمة.

٢. دلالات التقديم والتأخير:

إن ترتيب الكلمات في القرآن الكريم معجز كإعجاز المعاني التي تحملها تلك الكلمات سواء بسواء. فالقرآن الكريم عندما قدّم المعبود والمستعان على فعل العبادة وفعل الاستعانة، كان ذلك لحكمة عظيمة. وكذلك عندما قدّم القرآن الكريم العبادة على الاستعانة في سورة الفاتحة كان لذلك أيضاً حكم عظيمة ودلالات بليغة. وهكذا يُقال في تقديم القرآن الكريم "المغضوب عليهم" على "الضالين" في هذه السورة العظيمة.

يقول الإمام ابن القيم موضحاً أسرار تقديم المعبود والمستعان على فعلي العبادة والاستعانة في قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين"

"وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمّى بالحصر. فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك... مع أن في ضمير "إياك" من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي "إياك قصدت، وأحببت" من الدلالة على معنى: حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني: فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني"(٦٧).

وهذا يعني أن الترتيب يحقق إخلاص العبد لربه في توجيه العبادة إليه سبحانه وتعالى وطلب الإعانة منه على ذلك. إضافة إلى ما يحمله ذلك الأسلوب من نفي عبودية غير الله سبحانه وتعالى ونفي الاستعانة بغيره.

أما تقديم العبادة على الاستعانة فإن له دلالات تربوية عظيمة تشمل شخصية الإنسان من جميع جوانبها: الفكرية والانفعالية والعملية. يقول الإمام ابن القيم مبيناً تلك الدلالات العظيمة والحكم الجليلة:

"وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن "إياك نعبد" متعلق بألوهية واسمه "الله"، و "إياك نستعين" متعلق بربوبيته واسمه الرب. فقدم "إياك نعبد" على "إياك نستعين" كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة، ولأن "إياك نعبد" قسم الرب. فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و"إياك نستعين" قسم العبد، فكان مع الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و "إياك نستعين" قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له، وهو "اهدنا الصراط المستقيم" على آخر السورة. ولأن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس. فكل عابد لله عبودية تامة: مستعين به، ولا ينعكس... ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة. وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته. ولأن العبادة شكر نعمته عليك؛ والله يحب أن يُشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك. فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقّها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة. وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم... لأن "إياك نعبد" له، و "إياك نستعين" به، وما له مقدم على ما به. لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه. وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي. والمتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم. فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته. ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً. وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته"(٦٨).

إن المتأمل في العبارات السابقة يلاحظ أن تقديم العبادة على الاستعانة له دلالات تربوية عديدة من أهمها:

- العبادة هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان لقوله تعالى: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)** (الذاريات:٥٦)، بينما الاستعانة هي الوسيلة التي توصل إلى العبادة، ولا شك في أن العاقل يُقدم الغايات على الوسائل، ويُعنى بها أشد من عنايته بالوسائل.
- العبادة متعلقة بالألوهية بينما الإعانة متعلقة بالربوبية، والألوهية مقدمة على الربوبية، وذلك لأن الألوهية تتضمن الربوبية ولا عكس. ولهذا كان العرب في جاهليتهم يُقرّون بالربوبية ولكن لم يكونوا يقرّون بالألوهية، ولذلك سماهم القرآن مشركين.
- العبادة التامة لا تصدر إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولذلك فإن العبادة المطلقة تشمل الاستعانة من غير عكس. ومن هنا تقدّمت العبادة على الاستعانة، لأن العبادة تعبر عن ارتباط قلب العبد بربه في جميع الأحوال، بينما الاستعانة ملازمة للمواقف التي تحتاج إلى إعانة بسبب عجز العبد. والإنسان الذي يعبد ربه في جميع أحواله خيرٌ وأحب إلى الله من الذي يستعين به عند الحاجة.
- العبادة تمثل شكر العبد ربه، والشكر على النعمة مؤذن ببقائها وحفظها وزيادتها، حيث قال تعالى: **(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)**(إبراهيم:٧) فإذا قدم العبد شكر ربه عز وجل أعانه الله في كل شؤونه وأصلحها له. فالعبادة هي بمثابة السبب المؤدي إلى إعانة الله للعبد. ولذلك قدم السبب على المسبَّب.
- العبادة متعلقة برضا الله ومحبته، بينما الإعانة متعلقة بمشيئته سبحانه وتعالى. ولذلك كانت العبادة أكمل، لأن مشيئة الله تعالى شاملة لما يحب وما يكره، وللخير والشر، وللطاعة والمعصية، لكن محبة الله متعلقة بالمؤمنين الطائعين أهل رضاه. فإذا كانت مشيئة الله تعالى شاملة لكل ما يقع في الكون مما كان طاعة أو معصية، خيراً أو شراً، فإن محبة الله تقتصر على ما يصطفيه ويختاره من الناس والأحوال والأقدار، وهذا أشرف وأسمى.

ثم بين الإمام ابن القيم الحكمة من إعادة كلمة "إياك" في قوله: "إياك نعبد وإياك نستعين" فقال رحمه الله:

"وفي إعادة (إياك) مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه، فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحب، وإياك أخاف، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحب وأخاف"[٦٩].

وفي تقديم المغضوب عليهم على الضالين في هذه السورة حكمة لطيفة، ذلك لأن المغضوب عليهم عرفوا ربهم ثم انحرفوا عن الحق، وهم أشد بعداً وطغياناً من الضالين الذين وقعوا في الكفر بسبب الجهل. واليهود (المغضوب عليهم) أسبق من النصارى (الضالين) فاقتضى ذلك تقديم المغضوب عليهم(٧٠).

وفي ذلك تحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من عناد وجهل، ذلك لأن من يضل عن الهداية فإنما يضل عنها إما بسبب العناد أو بسبب الجهل، والعناد أقبح من الجهل لأن المعاند جاحد للحق حتى لو ظهر له، والجاهل ربما يرجع إلى الحق إذا استبانه. ومن هنا تقدم المغضوب عليهم على الضالين لأنهم أقدم في الزمان وأوغل في الجحود والعناد.

٣. دلالات الإضافة:

إن الإضافة في هذه السورة العظيمة لها دلالات تربوية عظيمة، فإضافة الملك إلى يوم الدين في قوله تعالى: "مالك يوم الدين" لها دلالاتها، وإضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم في قوله: "صراط الذين أنعمت عليهم" لها دلالاتها، وإضافة النعمة إليه عز وجل في قوله تعالى: "أنعمت عليهم" مع حذف فاعل الغضب في قوله "غير المغضوب عليهم"، كل ذلك له دلالاته التربوية التي سيلقي الباحث الضوء عليها تباعاً.

* "مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ":

أضاف القرآن الكريم الملك إلى يوم الدين، مع أن الله عز وجل مالك كل الأيام لا يوم الدين فحسب؛ وذلك لأن الدنيا فيها مَنْ يدّعي الربوبية فينازع الله تعالى في الملك مثل فرعون ونمرود وغيرهما، أما في يوم الدين فلا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خاضعون له كما قال تعالى: "لمن الملك اليوم"، فأجاب جميع الخلق: لله الواحد القهار(٧١).

ويُبين سيد قطب رحمه الله الآثار التربوية المترتبة على الاعتقاد بيوم الدين حيث يقول: "والاعتقاد بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ذات قيمة في تعليق أنظار البشر وقلوبهم بعالم آخر بعد عالم الأرض، فلا تستبد بهم ضرورات الأرض. وعندئذ يملكون الاستعلاء على هذه الضرورات. ولا يستبد بهم القلق على تحقيق جزاء سعيهم في عمرهم القصير المحدود، وفي مجال الأرض المحصور. وعندئذ يملكون العمل لوجه الله وانتظار الجزاء حيث يقدره الله في الأرض أوفي الدار الآخرة سواء، في طمأنينة لله، وفي ثقة بالخير وفي إصرار على الحق، وفي سعة وسماحة ويقين، ومن ثم فإن هذه الكلية تعد مفرق الطريق بين العبودية للنزوات والرغائب، والطلاقة الإنسانية اللائقة ببني الإنسان... وما تستقيم الحياة

البشرية على منهج الله الرفيع ما لم تتحقق هذه الكلية في تصور البشر. وما لم تطمئن قلوبهم إلى أن جزاءهم على الأرض ليس هو نصيبهم الأخير. وما لم يثق الفرد المحدود العمر بأن له حياة أخرى تستحق أن يجاهد لها، وأن يضحي لنصرة الحق والخير معتمداً على العوض الذي يلقاه فيها. وما يستوي المؤمنون بالآخرة والمنكرون لها في شعور ولا خلق ولا سلوك ولا عمل. فهما صنفان مختلفان من الخلق، وطبيعتان متميزتان لا تلتقيان في الأرض في عمل ولا تلتقيان في الآخرة في جزاء وهذا هو مفرق الطريق[٧٢].

• "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ":

إن إضافة الصراط إلى سالكيه من الذين أنعم الله عليهم لها دلالات تربوية بيّنها الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: "... فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له. وهم الذين أنعم الله عليهم، **ليزول عن الطالب للهداية** وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له. فإنهم هم الأقلون قدراً، وإن كانوا الأكثر عدداً... والقصد أن في ذكر هذا الرفيق ما يزيل وحشة التفرد، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم. وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت "اللهم اهدني فيمن هديت"، أي أدخلني في هذه الزمرة، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم. **والفائدة الثانية**: أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية، أي قد أنعمت بالهداية على من هديت، وكان ذلك نعمة منك. فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم، فهو توسل إلى الله بإحسانه. **والفائدة الثالثة**: كما يقول للسائل الكريم: تصدّق عليّ في جملة من تصدقت عليهم، وعلمني في جملة من علمته، وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك"[٧٣].

إن عبارة الإمام ابن القيم السابقة تبيّن بوضوح أن إضافة الصراط إلى سالكيه ممن أنعم الله عليهم في السابق واللاحق، وطلب المسلم من ربه أن يهديه إلى ذلك الصراط، كل ذلك يُعد من أسباب إزالة الغربة النفسية والاجتماعية التي يحس بها المسلم عندما ينظر ملياً في أحوال المسلمين ويقارن قوتهم بقوة أعدائهم، فيشعر بشيء من الإحباط والاغتراب، فيأتي هذا الدعاء "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم" ليقوّي من عزيمة المسلم، وهو يحس بأنه ينتمي إلى "الذين أنعم الله عليهم" فيشعر بهذا الامتداد الزماني الذي يبدأ بآدم عليه السلام وينتهي بيوم الدين، كما يشعر بعزة الانتماء إلى تلك الصفوة التي بلغت الذروة بإيمانها وصدقها وإن كانت قليلة مستضعفة في بعض الأزمان. وهذا كله يشد من أزر المسلم ويشعره بعزة الولاء وكرامة الانتماء ويزيل عنه آثار الغربة الثانية التي يعاني منها في زماننا.

وأضاف الطاهر بن عاشور رحمه الله حكمة أخرى لإضافة الصراط إلى المنعم عليهم. حيث إن من حكم ذلك "التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وتهمماً بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات... وتوطئة لما سيأتي من التبري من أحوال المغضوب عليهم والضالين، فتضمن ذلك تفاؤلاً وتعوذاً"(٧٤).

وفي هذا جمعٌ لهمة المسلم من أجل الاقتداء بالمنعم عليهم، والولاء لهم، والبراء من المغضوب عليهم والضالين.

*** "...أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم":**

في هذه الآية أضاف المولى الإنعام إلى نفسه، مع حذف فاعل الغضب وعدم نسبته إلى نفسه، وفي ذلك دلالات بينها الإمام ابن القيم في قوله: "وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه. **منها:** أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل. والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما...

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم **(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)** (النحل: ٥٣) فأضيف إليه ما هو منفرد به. وإن أُضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة. وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه. فكان من لفظة "المغضوب عليهم" بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرده بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها ما ليس في لفظة "المنعم عليهم".

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه، ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره، ما ليس في حذفه"(٧٥).

يتبين مما تقدم أن إضافة النعمة إلى الله هي إضافة تشريف وتكريم تؤدي إلى حب الإنسان لربه مصدر الإنعام والتشريف، كما أن في ترك إضافة المغضوب عليهم إلى فاعل معين من الإهانة والتبكيت والإعراض ما يؤدي إلى ابتعاد الإنسان العاقل عن سلوك طريقهم. وفي ذلك تعزيزٌ لمبدأ القدوة الحسنة والابتعاد عن مثل السوء.

٤. دلالات الإفراد والجمع:

إن الإفراد والجمع في هذه السورة العظيمة أمرٌ له دلالات تربوية جليلـة، حيـث إن السورة الكريمة جاء فيها الإفراد في موضعه والجمع في موضعه بطريقة تـؤدي أغـراض الجمع والإفراد بما يحقق إعجاز كلام الله تعالى.

إن الخطاب في سورة الفاتحة جاء بصيغة الجمع في أكثر من موضـع، وفـي ذلـك إشاعة لروح الجماعة، وقتل لروح الأثرة والأنانية، لأننا ندعو للآخرين بما ندعو به لأنفسنا... كما أن الاجتماع على الهدى دليل قوة. فإذا كثر السالكون يزيد الأُنس، ويقوى الثبات، بخلاف السالك وحده فإنه قد يضعف أو يمل أو يسقط. فكلما كثر السالكون كـان أدعـى للطمأنينـة والأنس[٧٦].

وقد عبر القرآن الكريم –في سورة الفاتحة– عن العبادة والاستعانة بلفظ الجمع (نعبد ونستعين) لا بالمفرد (أعبد وأستعين). وفي ذلك إشارة واضحة إلـى أهميـة الجماعـة فـي الإسلام، إضافة إلى أن المؤمنين إخوة. فلو قال: إياك أعبد لأغفل عبادة إخوانـه المـؤمنين، وعندما نقول "إياك نعبد" نذكر كل المؤمنين، ويدخل القائل في زمرتهم[٧٧].

ومجيء الفعلين بصيغة الجمع في قوله: "إياك نعبد وإياك نستعين" قصد به التواضـع وعدم تعظيم النفس في هذا المقام العظيم[٧٨].

وفي تلك المعاني تربية للإنسان المسلم على الشعور بالانتماء للأمة الإسلامية وبأنـه فرد من أفراد هذه الأمة يسره ما يسرها ويسوؤه ما يسوؤها، وقد قال النبي صـلى الله عليـه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[٧٩].

وأما إطلاق فعل "نستعين" دون تقييده بأمرٍ ما فالمقصود منه شمول كل شـيء يريـد الإنسان أن يستعين عليه بربه عز وجل[٨٠].

كذلك فإن ذكر الصراط منفرداً له دلالات تربوية بيّنها الإمام ابن القيم في قوله: "وذكر الصراط المستقيم منفرداً، معرفاً تعريفين: تعريفاً باللام، وتعريفاً بالإضافة. وذلك يفيد تعيّنـه واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنـه سـبحانه يجمعهـا ويفردها، كقوله (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**) (الأنعام:١٥٣) فوحد لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له... وهـذا لأن الطريـق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه. لا يصل إليه أحد إلا من هـذه الطريق"[٨١].

إن عبارة الإمام ابن القيم السابقة تدل على حقيقة جوهرية، هي قطب رحى الإسـلام، وهي التوحيد. فالتوحيد يقتضي التوجه بالعبادة الخالصة لإله واحد، والسير نحوه في مـدارج السالكين عبر طريق واحد هو الموصل للغاية، كما أن الأمة التي هُديت إلى الصراط المستقيم

أمة واحدة ودينها واحد هو الإسلام منذ آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الناصعة في الحديث الصحيح الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وقال: "هذا سبيل الله" ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: "هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه" ثم قرأ: **(وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)** (الأنعام:١٥٣) [٨٢].

٥. دلالات الوصف:

إن الصفات المذكورة في هذه السورة العظيمة لها دلالات وحكم معينة، وكل صفة وردت تضيف معنى من المعاني لا يكون بدونها، وسوف يوضح الباحث هذا الأمر من خلال ذكر بعض الأوصاف الواردة في هذه السورة.

*** "الرحمن الرحيم":**

وصف الله سبحانه وتعالى نفسه في هذه السورة بأنه الرحمن الرحيم وفي ذلك دلالات تربوية متنوعة. يقول الإمام الشوكاني: "وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنه"[٨٣].

والرحمن مختص بالله عز وجل لا يجوز أن يسمى به غيره[٨٤].

"والرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى"[٨٥].

ونقل الإمام القرطبي عن قطرب أن الجمع بين الرحمن والرحيم يجوز أن يكون للتوكيد ثم عقب على ذلك بقوله: "وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب، ويستغنى عن الاستشهاد. والفائدة في ذلك ما قاله محمد بن يزيد: انه تفضل بعد تفضل، وإنعام بعد إنعام، وتقوية لمطامع الراغبين، ووعد لا يخيب آمله"[٨٦].

وفي وصف الله سبحانه وتعالى نفسه بأنه الرحمن الرحيم تشويق الإنسان إلى الطاعة، وترغيبه في العودة إلى ربه، ونبذ لليأس الذي قد يتسرب إلى نفس الإنسان بسبب التفريط في الطاعة والإسراف على النفس بالمعصية.

ويفرق الإمام ابن القيم رحمه الله بين "الرحمن" و "الرحيم" بقوله: "وصفات الإحسان والجود والبر،والحنان والمنة والرأفة واللطف، أخص باسم "الرحمن"، وكرر إيذاناً بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته. فالرحمن: الذي الرحمة وصفه. والرحيم الراحم لعباده. ولهذا يقول تعالى: **(وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)** (الأحزاب:٤٣)، **(إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)**

(التوبة:١١٧). ولم يجيء رحمان بعباده، ولا رحمان بالمؤمنين، مع ما في اسم "الرحمن" الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به"[٨٧].

ومما سبق يتبين أن "الرحمن" صفة ذات لله سبحانه وتعالى، والرحيم صفة فعل يظهر من خلال رحمته بعباده سبحانه وتعالى؛ فهو رحمان في ذاته سواء شعر الناس بذلك أم لم يشعروا، مستحق لهذا الوصف قبل أن يخلق الناس وبعد أن يميتهم وحين يحييهم وعندما يحاسبهم، وهذا يشعر الإنسان بأنه بين يدي المتصف بالرحمة التي وسعت كل شيء وبالتالي يجعله سريع التوبة إلى ربه غير يائس من رحمته.

• **الصراط المستقيم:**

إن وصف طريق الله الموصل إليه بالصراط المستقيم له دلالات تربوية بيّنها الإمام ابن القيم بقوله: ".... ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى المقصود، والقرب، وسعته للمارّين عليه، وتعيّنه طريقاً للمقصود. ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة. فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين، وكلما تعوّج طال وبعد. واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود. ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته. وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيّنه طريقاً"[٨٨].

إن العبارة السابقة توضح أن هذا الوصف "الصراط المستقيم" له دلالات تربوية عديدة. منها أن الاستقامة من صفات الطريق الموصل إلى الله عز وجل. ومن يسلك هذا الطريق المستقيم فسيكون هو أيضاً مستقيماً في معتقده وفكره وسلوكه وانفعالاته. وأن التزامه بسلوك هذا الطريق يوصله إلى المقصود الذي هو تحصيل سعادة الدنيا والآخرة. وأن هذا الصراط هو الحنيفية السمحة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فهو طريق قريب غير مكلف للإنسان، وأن هذا الصراط واسع رحب فسيح للمارين عليه، وهذه السعة والفسحة صفة للطريق ذاته وللتكاليف الشرعية الموصلة إلى غايته، فهي تكاليف تشرح الصدر وتفسح الأمل في العاقبة الأكمل والأدوم، وهي الجنة وأن هذا الطريق هو وحده الموصل إلى المقصود. يقول تعالى: (**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ**)(الأنعام:١٥٣).

٦. دلالات الإيجاز والاختصار:

تعرّضت سورة الفاتحة للمنعم عليهم، والمغضوب عليهم، والضالين، وأشارت إلى السبب والجزاء في كلٍ من الطوائف الثلاث بأوجز عبارة وأفصحها. يقول الإمام ابن القيم موضحاً ذلك:

"وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاث بأوجز لفظ وأحضره. فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح. وهي الهدى ودين الحق. ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء. فهذا تمام النعمة. ولفظ "أنعمت عليهم" يتضمن الأمرين. وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية الذل والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم. وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم. فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه. فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال"[٨٩].

إن بيان سبب الإنعام على المنعم عليهم، وسبب غضب الله سبحانه على المغضوب عليهم، وسبب ضلال الضالين، ثم الإشارة إلى الجزاء الذي ينتظر كل فريق منهم، بأبلغ عبارة وأوجزها، ليدل بشكل واضح على سنة الأسباب والمسببات، وأن لكل شيء سبباً، وأن لا مجال للعشوائية في تفكير الإنسان المسلم. وهذا بدوره يؤدي إلى بناء العقلية ذات المنهجية السليمة في التفكير، التي تبني المقدمات لتحصل على النتائج، وتقدم الأسباب لتحصل على المسبّبات. وهذا هو المعنى الصحيح للتوكل الذي أمر الله به عباده.

٦ دلالات الالتفات:

اشتملت سورة الفاتحة على أسلوب خطاب الغائب من بدايتها إلى قوله تعالى: "مالك يوم الدين"، ثم انتقلت إلى أسلوب خطاب الحاضر من قوله تعالى "إياك نعبد وإياك نستعين" إلى آخر السورة. والانتقال من خطاب الغائب إلى خطاب المتكلم أو المخاطب أو العكس يسمّى في البلاغة الالتفات"[٩٠].

لقد بين "السامرائي" أن الالتفات له فائدتان: فائدة علمة، وفائدة في المقام "أما الفائدة العامة فهي تطرية لنشاط السامع وتحريك الذهن للإصغاء والانتباه"، وأما الفائدة التي في المقام فقد بينها السامرائي عندما قال: "الكلام من أول الفاتحة إلى مالك يوم الدين كله ثناءٌ على الله

تعالى، والثناء يكون في الحضور والغيبة. والثناء في الغيبة أصدق وأولى، أما "إياك نعبد وإياك نستعين" فهو دعاء، والدعاء في الحضور أولى وأجدى"[٩١].

إن أوائل سورة الفاتحة هي حمد لله وثناء عليه وتمجيد له، وهذه المعاني تكون أصدق في الغيبة، ولذلك جاءت أوائل سورة الفاتحة بصيغة خطاب الغائب، وإن كان الله عز وجل في الحقيقة حاضراً ومحيطاً بخلقه علماً وسمعاً وبصراً وتدبيراً. ولما كان النصف الثاني من سورة الفاتحة مشتملاً على دعاء العبد وطلبه من ربه، فإن الدعاء والطلب من الأمور التي يلزمها خطاب الحاضر الذي يجعل العبد يدعو ربه وكأنه يراه، ويطلب منه حاجته وكأنه أمامه.

خامساً: اشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان:

من دلالات سورة الفاتحة التربوية أنها شفاء للقلوب والأبدان، شفاء للقلوب من الضلال والشبهات والشهوات والرياء والكبر وغير ذلك، وشفاء للأبدان من الأسقام والعاهات. وبذلك يتحقق بهذه السورة العظيمة علماً واعتقاداً وعملاً صحة النفس وصحة البدن، وهذا غاية مُراد الإنسان العاقل.

يقول الإمام ابن القيم مبيناً اشتمال سورة الفاتحة على شفاء القلوب: ".... فأما اشتمالها على شفاء القلوب: فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال. فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين: فساد العلم، وفساد القصد. ويترتب عليها داءان قاتلان، وهما الضلال والغضب؛ فالضلال نتيجة فساد العلم، والغضب نتيجة فساد القصد. وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعاً، فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال، ولذلك كان سؤال هذه الهداية أفرض دعاء على كل عبد، وأوجبه عليه كل يوم وليلة، في كل صلاة، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة، ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه. والتحقق بـ "إياك نعبد وإياك نستعين" علماً ومعرفة وعملاً وحالاً، يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد. فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل. فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبة غير الله وعبوديته، من المشركين ومتبعي الشهوات، الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل... وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه، وهي من أعظم القواطع عنه. فحاله أيضاً كحال هذا، وكلاهما فاسد القصد، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء "إياك نعبد وإياك نستعين". فإن هذا الدواء

مركب من ستة أجزاء: عبودية الله لا غيره، بأمره وشرعه، لا بالهوى، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم، بالاستعانة على عبوديته به، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره. فهذه هي أجزاء (إياك نعبد وإياك نستعين) فإذا ركبها الطبيب اللطيف، العالم بالمرض، واستعملها المريض، حصل بها الشفاء التام، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها، أو اثنين أو أكثر. ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما: الرياء والكبر. فدواء الرياء بـ (إياك نعبد)، ودواء الكبر بـ (إياك نستعين)... فإذا عوفي من مرض الرياء بـ (إياك نعبد) ومن مرض الكبر والعجب بـ (إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل بـ (اهدنا الصراط المستقيم) عوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعم عليهم، غير المغضوب عليهم، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عه، والضالين، وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه"[٩٢].

وكما أن في سورة الفاتحة شفاءً للقلوب، ففيها أيضاً شفاء للأبدان. فقد جاء في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما ما يُفيد بأن سورة الفاتحة رقية مما يلم بالبدن من أسقام.

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي المتوكل عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: انطلق نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في سفرة سافروها حتى نزلوا على حيّ من أحياء العرب فاستضافوهم فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم فقالوا: يا أيها الرهط إن سيدنا لُدغ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه، فهل عند أحد منكم من شيء. فقال بعضهم: نعم والله إني لأرقي ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلاً فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرأ الحمد لله رب العالمين، فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قلبة[*]. قال: فأوفوهم جعلهم الذي صالحوهم عليه. فقال بعضهم اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فنذكر له الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا له فقال: وما يدريك أنها رقية، ثم قال: قد أصبتم، اقسموا واضربوا لي معكم سهماً فضحك رسول الله"[٩٣].

ويعلق الإمام النووي رحمه الله على قول النبي صلى الله عليه وسلم: "وما أدراك أنها رقية" قائلاً: "فيها التصريح بأنها رقية، فيُستحب أن يُقرأ بها على اللديغ والمريض وسائر أصحاب الأسقام والعاهات"[٩٤].

(*) قلبة بفتح القاف واللازم والباء: أي علة.

ومن خلال ما تقدم يستبين -بوضوح- أن سورة الفاتحة مشتملة على شفاء القلوب من عللها الفكرية والانفعالية والوجدانية، وشفاء الأبدان من أمراضها الظاهرة والباطنة. فهي بذلك تحقق غاية التربية الإسلامية التي تسعى إلى بناء الإنسان الصالح في معتقداته وأفكاره وانفعالاته، المعافى في بدنه وسمعه وبصره. وبذلك تكون سورة الفاتحة مشتملة على المقاصد العليا للتربية كاشتمالها على مقاصد الشرع سواء بسواء.

النتائج والتوصيات:

تناولت هذه الدراسة دلالات سورة الفاتحة التربوية في ضوء التفسير القيم للإمام ابن القيم رحمه الله، ودعمت ذلك بآراء العلماء المسلمين، والمفسرين قديماً وحديثاً. ومن المعلوم أن سورة الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن كما وصفها بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم. وما حظيت سورة الفاتحة بهذا الوصف إلا لأن فيها من الدلالات التربوية ما تستحق به الدراسة والبحث. قد أوضحت هذه الدراسة العديد من الدلالات التربوية المتضمنة في هذه السورة العظيمة، وخلصت الدراسة بالنتائج الآتية:

١. سورة الفاتحة تشتمل على مقاصد الدين العامة ومطالبه العالية من حيث التعريف بالمعبود، وإثبات المعاد والنبوات، وتضمنها لأنواع التوحيد الثلاثة (الربوبية والألوهية والأسماء والصفات)، وشمولها لجوانب الهداية المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح، وبيانها أقسام الناس في معرفة الحق والعمل به، وهم المنعم عليم والمغضوب عليهم والضالون.

٢. سورة الفاتحة بينت مفهوم العبادة الصحيحة، وقد توسع الإمام ابن القيم رحمه الله في الحديث عن العبادة بوصفها غاية خلق الإنسان في هذه الدنيا. وقد عالج الإمام ابن القيم مفهوم العبودية الوارد في سورة الفاتحة معالجة مستفيضة، وكان من القضايا المهمة التي تعرض لها الإمام ابن القيم ما يمكن الإشارة إليه في النقاط الآتية:

- العبادة الخالصة هي التي تتضمن غاية المحبة مع غاية الذل والخضوع.
- العبادة منزلتها عظيمة، وقد اتفق الرسل على دعوة الناس إليها، كما أن الله سبحانه وصف أكمل خلقه في أعلى مقاماته بالعبودية.
- العبادة المطلقة هي أفضل العبادة وأنفعها للعبد. وتعني العبادة المطلقة التعبد لله بما يلائم المقام، حيث تكون الصلاة في وقتها أفضل العبادات، والجهاد عندما يتعين أفضل أنواع العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أفضل العبادات عند حاجة الناس إليه، وهكذا. وهذا الفهم يخلص الإنسان من الفهم الجزئي الذي يحصر العبادة في هيئة معينة، كمن يفضل العبادة الشاقة على غيرها بغير دليل.

- العبودية نوعان: عامة يدخل فيها جميع الناس، وخاصة بأهل الطاعة والولاية.
- العلم والعمل ركنا العبودية، وهما يشملان القلب واللسان والجوارح ولا يمكن أن تتحقق العبودية إلا بالإخلاص والصواب.
- الناس بحسب موقفهم من العبادة والاستعانة ينقسمون إلى أربعة أقسام: أهل العبادة والاستعانة، والمعرضون عن العبادة والاستعانة، والذين لهم نصيب من العبادة من غير استعانة، والذين لهم نصيب من الاستعانة من غير عبادة.

٣. الجانب البياني في سورة الفاتحة تضمن الكثير من الدلالات والحكم التربوية، وتعلقت تلك الدلالات بالنواحي البيانية الآتية: الابتداء، والتقديم والتأخير، والإضافة، والإفراد والجمع، والوصف، والإيجاز والاختصار.

٤. سورة الفاتحة –بما تمثله من عظمة وما تتضمنه من حكم ودلالات تربوية– فيها شفاء للقلوب والأبدان؛ شفاء للقلوب من الشك والشرك والشبهة، وشفاء للأبدان من عاهاتها وأسقامها.

وفي ضوء ما تقدم من النتائج توصي الدراسة بما يأتي:

- تعزيز الدراسات التربوية التي تتخذ من القرآن والسنة منطلقاً لها من أجل تأصيل المفاهيم التربوية وربطها بمعايير الثقافة الإسلامية القويمة.
- حث الباحثين على دراسة الفكر التربوي لدى علماء الأمة السابقين من الفقهاء والمفسرين والمحدثين من أجل إظهار مساهماتهم في إيضاح المفاهيم التربوية، والاستفادة من تلك الجهود في مشروع أسلمة المعرفة.
- توجيه الباحثين نحو دراسة بعض المفاهيم التربوية دراسة مقارنة تساهم في إزالة اللبس الواقع في تلك المفاهيم، وتُجلّى الرؤية الإسلامية لهذه المصطلحات والمفاهيم. ومن المفاهيم التي يحسن دراستها دراسةً مقارنة مفهوم الخبرة، ومفهوم المنفعة (البراجماتية)، ومفهوم الموضوعية، وغير ذلك.
- تعزيز التعاون البنّاء بين الكليات الشرعية والكليات التربوية من أجل تعميق رؤية الباحث التربوي وفهمه للأصول والمصادر المتمثلة في القرآن والسنة، وتوسيع مدى رؤية الباحث الشرعي لمعالجة مشكلات الواقع وتحدياته بناءً على ما يملكه من أصول قوية. ويمكن أن يتم ذلك من خلال الندوات والمؤتمرات المشتركة وتبادل الخبرات فيما يتعلق بالتدريس والإشراف على طلب الدراسات العليا ومناقشة أطروحاتهم.

تم بحمد الله

الهوامـش:

(1) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (١٤٠٤هـ): تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، الرياض، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد (٢٦٤/٤).

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٩٨٧م): صحيح البخاري (تحقيق: مصطفى ديب البغا)، بيروت، دار ابن كثير، الجزء الرابع، ص١٦٢٣، رقم الحديث (٢٤٠٤).

(3) أنيس، إبراهيم، وآخرون (١٩٨٥م): المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، ٢٩٤/١.

(4) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (١٩٩٧م): معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، ضبطه وصححه: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ص (١٩٢).

(5) بديوي، يوسف علي (١٩٩٣): مقدمة كتاب الداء والدواء لابن قيم الجوزية، بيروت، دار ابن كثير، ص (٧-١٠).

(6) البغوي، الحسين بن مسعود (١٩٨٧م): معالم التنزيل، بيروت، دار المعرفة، ط٢، المجلد الأول، ص (٣٧).

(7) القرطبي، محمد بن أحمد (١٣٧٢هـ): الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الشعب، ط٢، المجلد الأول، ص (١١٥).

(8) المرجع السابق، المجلد الأول، ص (١١٠).

(9) المرجع السابق، المجلد الأول، ص (١١١).

(10) البخاري، محمد بن إسماعيل (١٩٨٧م): صحيح البخاري (تحقيق: مصطفى ديب البغا)، بيروت، دار ابن كثير، الجزء الرابع، رقم الحديث (٢٤٠٤)، ص (١٦٢٣).

(11) العسقلاني، أحمد بن علي (١٣٧٩هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب)، بيروت، دار المعرفة، الجزء الثامن، ص (١٥٨).

(12) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، المطبعة المصرية ومكتبتها، الجزء السادس، ص (٩١).

(13) ابن عاشور، محمد الطاهر (١٩٩٧م): تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، المجلد الأول، ص (١٣١).

(14) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١١١-١١٣).

(15) البيضاوي (١٩٩٦م): تفسير البيضاوي، بيروت، دار الفكر، المجلد الأول، ص (١٦-١٧).

(16) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٥٣).

(17) ابن القيم، محمد بن أبي بكر: التفسير القيم، جمع: محمد أويس الندوي، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتب العلمية، ص (٦٥).

(18) قطب، سيد (١٩٨٠): في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ط٩، المجلد الأول، ص (٢٥).

(19) ابن القيم: التفسير القيم (مرجع سابق)، ص (٦-٩).

(20) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٥٢).

(21) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٢٤-٢٥).
(22) المرجع السابق، ص (٣١-٣٢).
(23)المرجع السابق، ص (٣٤-٣٥).
(24) البيضاوي: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (٥١).
(25) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (١٤٠٤هـ): زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، المجلد الأول، ص (١١).
(26) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٣٧).
(27) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٩-١٠).
(28) البيضاوي: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (٧٠-٧١).
(29) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (١١).
(30) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، الجزء الأول، رقم الحديث (٣٩٥)، ص (٢٩٦).
(31) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، الجزء الرابع، ص (١٠٣).
(32) ابن القيم، التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٢٣-٢٤).
(33) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٥).
(34) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٦٥).
(35) المرجع السابق، ص (٨٨).
(36) المرجع السابق، ص (٨٩-٩٠).
(37) المرجع السابق، ص (٩٢).
(38) المرجع السابق، ص (٩٣-٩٤).
(39) المرجع السابق، ص (٧٦-٧٩).
(40) المرجع السابق، ص (٨٠).
(41) المرجع السابق، ص (٩٥-٩٦).
(42) المرجع السابق، ص (٩٧).
(43) المرجع السابق، ص (٧٣-٧٥).
(44) المرجع السابق، ص (٩٨-٩٩).
(45) المرجع السابق، ص (٩١).
(46) البخاري: صحيح البخاري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص (٢٨)، رقم الحديث (٥٢).
(47) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (١٠٠).
(48) المرجع السابق، ص (١٠٠-١٠١).
(49) المرجع السابق، ص (١٠٣-١٠٤).
(50) المرجع السابق، ص (١٠٥).
(51) المرجع السابق، ص (١٠٦).
(52) المرجع السابق، ص (١٠٧-١٠٨).
(53) المرجع السابق، ص (١٠٨-١٠٩).
(54) المرجع السابق، ص (١٠٩-١١١).
(55) المرجع السابق، ص (٦٩).

(56) المرجع السابق، ص (٧٠).
(57) المرجع السابق، ص (٧٢).
(58) المرجع السابق، ص (٧٣).
(59) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٥٨).
(60) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٣٤).
(61) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٣٥).
(62) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٣١).
(63) المقدسي، أبو عبد الله (١٤١٠هـ): الأحاديث المختارة، تحقيق: عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، الجزء السادس، ص (١٨٦)، رقم الحديث (٢١٩٥).
(64) السامرائي، فاضل صالح (٢٠٠١): لمسات بيانية في سورة الفاتحة، حلقات بُثت على قناة الشارقة الفضائية في شهر رمضان المبارك، ص (١).
(65) المرجع السابق، ص (٢).
(66) المرجع السابق، ص (٤-٥).
(67) ابن القيم: التفسير القيم، ص (٦٨).
(68) المرجع السابق، ص (٦٦-٦٧).
(69) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٦٨-٦٩).
(70) السامرائي: لمسات بيانية في سورة الفاتحة، مرجع سابق، ص (١٤).
(71) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٤٣).
(72) قطب: في ظلال القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (٢٤-٢٥).
(73) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٢٢-٢٣).
(74) ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٩٣).
(75) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (١٢-١٣).
(76) السامرائي: لمسات بيانية في سورة الفاتحة، مرجع سابق، ص (١١).
(77) المرجع السابق، ص (٨-٩).
(78) الشوكاني، محمد بن علي: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة في علم التفسير، بيروت، دار الفكر، المجلد الأول، ص (٢٣).
(79) البخاري: صحيح البخاري، مرجع سابق، الجزء الخامس، رقم الحديث (٥٦٦٥)، ص (٢٢٣٨).
(80) السامرائي: لمسات بيانية في سورة الفاتحة، مرجع سابق، ص (٨).
(81) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (١٤).
(82) التبريزي محمد بن عبد الله (١٩٨٥م): مشكاة المصابيح (تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني)، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٣، الجزء الأول، رقم الحديث: ١٦٦.
(83) الشوكاني: فتح القدير، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (٢١).
(84) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٠٦).
(85) البيضاوي: تفسير البيضاوي، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (٣٩).
(86) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، مرجع سابق، المجلد الأول، ص (١٠٥).
(87) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٣٣).

(88) المرجع السابق، ص (١٠).
(89) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (١٣).
(90) السامرائي: لمسات بيانية في سورة الفاتحة، مرجع سابق، ص (٩).
(91) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(92) ابن القيم: التفسير القيم، مرجع سابق، ص (٤٦-٤٨).
(93) البخاري: صحيح البخاري، مرجع سابق، الجزء الثاني، ص (٧٩٥)، رقم الحديث (٢١٥٦).
(94) النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، مرجع سابق، الجزء الرابع عشر، ص (١٨٨).

ملخص الدراسة:

عنوان الدراسة: دلالات سورة الفاتحة التربوية في ضوء التفسير القيم.

قصدت هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- بيان مقاصد الدين العامة المتضمنة في سورة الفاتحة وما يتعلق بها من دلالات تربوية في ضوء التفسير القيم.
- إيضاح الدلالات التربوية لمضمون العبادة في سورة الفاتحة.
- تجلية الدلالات التربوية المتعلقة بالجانب البياني في سورة الفاتحة.
- الكشف عن اشتمال سورة الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان.
- إلقاء الضوء على جانب من آراء الإمام ابن القيم التربوية الواردة في التفسير القيم.

واستخدمت الدراسة منهج البحث الوصفي التحليلي. وخلصت بنتائج عديدة من أهمها:

- اشتمال سورة الفاتحة على مقاصد الدين العامة ومطالبه العالية من حيث تضمنها لأنواع التوحيد الثلاثة، وإثباتها المعاد والنبوات، وإشارتها إلى أنواع الهداية.
- دلالة سورة الفاتحة على مفهوم العبادة الصحيحة التي تقوم على غاية المحبة مع غاية الذل والخضـوع للخالق بحسب المقام والحال، وهذه هي العبادة المطلقة.
- هناك دلالات تربوية عظيمة تتعلق بالجانب البياني من سورة الفاتحـة كالابتـداء، والتقـديم والتـأخير، والوصف، والإيجاز.
- تضمن سورة الفاتحة لشفاء القلوب والأبدان بما يثبت وصف النبي صلى الله عليه وسلم لها بأنها أعظـم سورة في القرآن.

Abstract:

The educational significance of the opening chapter of the Holy Koran in the light of "Al-Tafser Al-Qayem"

The study aimed at revealing the following objectives:-

- Realizing the religion's general aims included in the opening chapter of the Holy Koran and its educational meanings.
- Discovering the religion's educational meanings in the opening chapter of the Holy Koran.
- Bringing to light the educational senses related to eloquence factor in the opening chapter of the Holy Koran.
- Finding that whether the opening chapter of the Holy Koran is including a remedy for both bodies and hearts.
- Spotting the light on Ibn Al-Qayem's educational points of view which were mentioned in "Al-Tafser Al-Qayem".

The study used the analytical descriptive method. The study findings are:

- The opening chapter of the Holy Koran comprised the religion's general intentions through including the three types of confirmation of the oneness of Allah. It also proved the Day of Judgment, prophet hood and indicated to guidance types.
- The demonstration of the opening chapter of the Holy Koran on the true worship concept which is based on the extreme love, submission and servility for the Creator.
- There are great educational significance related to the eloquence phase of the opening chapter of the Holy Koran such as; initiation, advancement, retardation. brevity and description.
- The opening chapter of the Holy Koran included a remedy for both bodies and hearts which proved Prophet Mohammed's description that it is the greatest chapter of the Hoy Koran.